﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رسولُنا أجلُّ نِعَمِ اللهِ ورَحماتِه للعالَمِينَ

لَمّا أمَرَ اللّه الناسَ جميعًا بذِكْرِ نعمةِ اللّه عليهم، وكانَ إرسالُ الرُّسُلِ على العمومِ نعمةً عظيمةً، وإرسالُ النبيِّ محمدٍ ﷺ نعمةً أجلَّ وأعظمَ، وكانَ الأمرُ بذِكرِ النِّعْمةِ أمرًا بشُكْرِها؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِن النّاسِ مَن يكذّبُ بها.

ولَمّا ذُكِّرَ النّاسُ بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ الرّازقُ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: 3]، وخُتِمتِ الآية بالتَّوحيدِ الّذي هو الأصلُ الأوّلُ مِن أصولِ الدّين؛ نُبِّه في هذه الآيةِ على أنَّه المقصودُ بالذّات بذِكْر ما يعقبُه في الأصل الثّاني وهو الرِّسالةُ مِن تصديقٍ وتكذيبٍ، فجاء البيانُ القرآنيُّ ناعيًا على قريشٍ سوءَ تَلقّيهم لآياتِ اللّهِ وطَعْنِهم في بيِّناته؛ مُسلّيًا نبيَّهُ ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرْجَعُ﴾: أصلُ (رجع) كبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى مكانٍ منه البدءُ، سواءٌ كان مكانًا أوْ قولًا أوْ فِعلًا، وسواءٌ كان العَوْدُ بذاته أوْ بجزءٍ من أجزائِه أوْ بفعلٍ من أفعالِه[2]، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ[3]، ومعنى الرُّجوعِ إلى اللّهِ: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ في عبادِه[4]، والمرادُ بـ﴿تُرْجَعُ﴾ هنا: العَوْدُ والمآبُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 11/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 223.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه سبحانه مسَلّيًا نبيَّه ﷺ: وإنِ استمرّوا على أنْ يُكذّبوك يا محمَّد ﷺ فيما بلّغتَ إليهم مِنَ الحقّ المبين، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَذَّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَن سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ، وإلى اللّه وحدَه ترجعُ أمورُ الخلائقِ جميعًا يومَ الدّين؛ فيحاسبُ كلَّ امرئٍ على عَملِه، ويجزيهِ عليه[1].

عـزاءٌ كـريـمٌ مِـنَ الـلـه سبحانه للنَّبيِّ فيما يَلْقَى مِـن قـومـه مِـن تكذيبٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو:

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها مِن مجموعِ الشّرط والجوابِ على جملةِ: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: 3]، والمعنى: وإنِ استمرّوا على انصرافِهم عن قَبولِ دَعوتك، ولم يَشكروا النِّعْمةَ ببَعْثِك فلا عجبَ؛ فقد كذَّبَ أقوامٌ مِن قبلِهم رسلًا مِن قبلك[2]، فالواوُ عطَفَت ما هو كفرٌ بالنِّعْمةِ على الأمْرِ بذكرِها الَّذي هو أمرٌ بشُكْرِها؛ وهذا مِن عطْفِ مضمونِ كلامٍ على مضمونِ كلامٍ آخَرَ، ويجوزُ أنْ تكون عاطفةً لِما بعدَها على ما بعد (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: 3]؛ لأنَّ الإفكَ هو الكذبُ الفاحشُ القُبحِ؛ كالتّكذيبِ المذكورِ.

أقـبـحُ الـكـفـرِ بـالـنِّـعَـم عـدمُ شُكْرِ صاحبِها

سِرُّ التعبير بـ (إنْ):

آثرَ البيانُ الإلهيُّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ لأنَّ فعلَ الشّرط الذي هو تكذيبُ أهلِ الكفرِ نبيَّنا محمّدًا ﷺ قد تحقَّقَ وقوعُه؛ فكان التّعبيرُ بـ(إنْ) على خلافِ الظّاهرِ؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ مِن مِثْلِهم كالمُحالِ؛ لتنزيلِهم - بعدَ قيامِ الحجةِ وتكذيبِهم

قـد بـانَ لـهـم أنَّ الـلـه فـاطـرُ الـسَّـمـاوات والأرض؛ فكيف يُكذِّبونَ رسولَه؟!

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 330، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 533، 534، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 301 - 302.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

– منزلةَ مَن أيقنَ بصدْقِ الرّسول؛ فلا يكونُ فرْضُ استمرارِهم على تكذيبه إلّا كما يُفْرَضُ المُحالُ[1].

علّةُ إفرادِ التّكذيبِ بالذِّكْرِ:

يُكذِّبون محمّدًا؛ ومُرْسِلُه المُنعِمُ عليهم الخالِقُ لهُم!!

أفْرَد القرآنُ من أحوالِ أهلِ الكفرِ التّكذيبَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بالذِّكْرِ؛ اهتمامًا بتسليةِ نبيِّنا محمّدٍ ﷺ؛ لأنَّ من مقاصدِ الآيةِ التّسليةَ المذكورةَ، وأيَّدَ القرآنُ هذا بذكرِ تكذيبِ رسلٍ كثيرينَ قبلَ نبيِّنا ﷺ، وتَكرارُ التّكذيبِ في جملة: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ أبلغُ في إنكار تكذيبِه وتقبيحِه والتّشْهيرِ به، وأبلغُ في تسليةِ رسولِنا محمّدٍ ﷺ؛ وتنبيهًا على أنَّ الأكثرَ يُكذِّبُ[2]؛ وإشارةً إلى ما تضمّنَه قولُه: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: 3] من تبليغٍ بالتّوحيدِ ووجوبِ إفرادِه بالعبوديّةِ، فكان التّكذيبُ أهمَّ سمةٍ يُعرَفُ بها المخاطَبون.

علّةُ التّعبيرِ بالمضارعِ:

حدوثُ التّكذيبِ بعدَ العلمِ بالبراهينِ إصرارٌ على الضّلالِ المُبينِ

نَظَم القرآنُ التّكذيبَ الذي هو فعلُ الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ نظرًا إلى حدوثِ التّكذيبِ من أهلِ الكفرِ بعدَ قوّةِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وهو إنَّما يكونُ في المستقبلِ؛ فجاءَ فعلُ الشّرط مضارعًا دالًّا على الاستقبال على الأصلِ فيه بعدَ أداة الشّرط، والمعنى: إنْ حدَث منهم تكذيبٌ مستمرٌّ في المستقبل بعدَما قرَع أسماعَهُم مِنَ البراهينِ الدّامغةِ[3].

فائدةُ الانتقال إلى خطابِ النَّبيِّ ﷺ:

مَن كانَ اللهُ معَه فمَن ذا يكونُ عليه؟!

لم يَرِد لرسول اللّه محمّدٍ ﷺ ذِكْرٌ صريحٌ في الآياتِ الثّلاثِ الأولى في مطلع السّورة، والتي وردت من قبلِ هذه الآية، ومعَ ذلك خاطبَه ربُّنا بقولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ دلالةً على قَصْدِ الإبلاغِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

في تسليتِه، بتوجيهِ الخطابِ الرَّبانيِّ لهُ ﷺ، وهذا معنًى جليلٌ من شأنِ رسولِنا ﷺ أنْ يُدْرِكَه، وأنْ يجريَ في قلبه ونفسِه.

وفي تعليقِ التّكذيبِ بذات النّبيِّ ﷺ دونَ دعوتِهِ ودينِهِ وكتابِهِ إشارةٌ جليلة إلى أنَّ تكذيبَ النّبيِّ ﷺ هو تكذيبٌ لما جاء به من عند اللّه، وفي ذلك ربطٌ عميقٌ بين ذاتِهِ وما جاءَ به من عند ربِّه؛ لأنَّه السّببُ والمبلّغُ عنِ اللّه تعالى والمخبرُ عمّا نزل إليه من ربِّه، ففي التّعليقِ مجازٌ حذفيٌّ تقديرُه: (وإن يكذبوا رسالتك) مثلًا.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَقَدْ﴾:

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ سببيَّةٌ رابطةٌ بينَ الشّرط وجوابِه، والجوابُ المُسبَّبُ محذوفٌ، لعدمِ صحَّةِ ترتُّبِ ما بعدَ (الفاءِ) وتسبُّبِه عمّا قبلَه؛ وفيه لمحٌ إلى أنَّ تكذيبَ نبيِّنا ﷺ وتكذيبَ الرُّسلِ من قبلِه من جِنْسٍ واحِدٍ.

في ظاهرِ اللَّفظِ والنَّظْمِ بلاغةٌ وحِكْمةٌ

غرضُ التَّعبيرِ بـ(قد):

كلمةُ (قد) أداةُ توْكيدٍ؛ ودخولُها على الفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾: أفادَ معنَى تحقيقِ التّكذيبِ المذكورِ؛ وهذه التَّسليةُ تُظهرُ الصَّورةَ لعظيمِ حُزْنِ نبيِّنا ﷺ على ضلالِ قومِه، وأنَّه من شِدَّةِ حرصِه على هدايتِهم كانَ لا يتوقَّعُ تكذيبَهُم؛ فكان كالمُنْكِرِ له، أوِ الشّاكِّ فيه، وفي (قد) مدحٌ لنبيِّنا على شديدِ خوفِه على قومِه، ورأفتِه بأُمَّته.

شديدُ الرّغْبةِ في الشَّيْءِ لا تَتَوقَّعُ نَفْسُهُ عَدَمَ تَحَقُّقِهِ

دلالةُ حذفِ الفاعلِ:

حذفَ القرآنُ فاعلَ فعلِ التّكذيبِ؛ فبنَى الفعلَ لما لم يُسَمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾؛ نظرًا إلى مقصدِ التّسليةِ؛ لأنَّ التَّسْلية محطُّها وقوعُ التّكذيبِ، لا تعيينُ المُكذِّبِ[1]، ففيه تعظيمُ

أوذي نبيُّنا حسًّا ومعنًى؛ كما أوذيَ الرُّسُلُ مِن قبلِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.

التّكذيبِ وتحقيرُ المُكذِّبِ، وإتيانُ القدرة الإلهيَّة عليه، ولمّا نتَجَ عنِ الحذفِ إسنادُ التَّكذيبِ إلى الرُّسُل في الظّاهرِ؛ دلَّ على قوّة التّكذيبِ، وشدّةِ التصاقِه بالرُّسُلِ، وتأثُّرِهم به؛ وهذا أبلغُ في تحقيق مقصدِ التّسليةِ، وإنَّما أظهرَ المكذِّبين له ﷺ وحذفَ مُكذّبي الأممِ السّابقة؛ لأنَّ المقصود أنْ يرعويَ هؤلاءِ المكذِّبون بأولئك الَّذين عوقبوا حتى لم يُذكروا.

علَّةُ التَّعبير بلفظ: ﴿رُسُلٌ﴾:

استحضارُ الرِّسالةِ في سياقِ التَّكذيبِ أبلغُ في التَّسْليةِ

آثَر القرآنُ التَّعبيرَ بصفةِ (الرِّسالةِ) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ نبيَّنا محمّدًا ﷺ قد أدَّى ما حمَّلَه اللّهُ من رسالةٍ إليهم؛ فلم يُقصِّر، وهذا ممّا يُساعِدُ على تحقيقِ قَصْد التَّسْلية، ولبيانِ قبحِ تكذيبِهم؛ لأنَّ الرِّسالةَ تُضاف إلى اللّه تعالى؛ لأنَّه المُرْسِلُ بها؛ فإذا كذَّبوا نبيَّهُم المُرْسَلَ فقد كذَّبوا اللّه تعالى المُرْسِلَ، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]، وليكونَ في أمرِ رسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ عِبْرةٌ وعِظةٌ لمَن يكونونَ رُسُلًا لرسولِ اللّه ﷺ من أمَّتِه منَ العلماءِ والدّعاةِ.

سِرُّ التَّنكيرِ:

نُكِّر لنبيِّنا سابِقوه؛ ليتذكَّر أحوالَهُم الكثيرةَ؛ فيتسلَّى بهم

نَظَم القرآنُ نائبَ الفاعل ﴿رُسُلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ نكرةً؛ لأنَّه أبَرُّ بالسّياقِ وقصدِه؛ لإفادتِه التّفخيمَ والتَّعظيمَ والتَّكثيرَ؛ أي: رُسُلٌ ذَوو عددٍ كثيرٍ، وأولوا آياتٍ ونُذُرٍ، وأهلُ أعمارٍ طِوالٍ، وأصحابُ صبرٍ وعزْمٍ، وما أشْبَهَ ذلك، وهذا أسْلَى لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ وأحثُّ له على المُصابرةِ، والاستمرارِ في دعوتِهم[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 65، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 167 - 168.، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

بلاغةُ التّقييدِ:

آخِـرُ الـرُّسُـلِ بـلادُه أعـظـمُ، وصبرُه أفخمُ

الجارُّ والمجرور ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ﴿رُسُلٌ﴾؛ والوصفُ قيدٌ للموصوفِ، وهذا القيدُ معلومٌ لكلِّ مُتلقٍّ؛ فضلًا عن نبيِّنا محمّد ﷺ؛ لأنّه معلومٌ أنَّه سُبِقَ برُسلٍ كثيرينَ؛ ففي التَّصريح بالتَّقييد بالقَبْليَّةِ مُضافةً إلى كافِ الخطابِ النَّبَويِّ إشعارٌ لطيفٌ بأنَّه آخِرُ الرُّسُلِ؛ كما أشعَر به الجَمْعُ النَّكِرةُ: ﴿رُسُلٌ﴾؛ قال البقاعيُّ: "ونفَى أنْ يُرْسَلَ غيرُه بعدَ وجودِه بقولِه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾"[1]، وفي هذا بيانٌ لخطَرِ مكانتِه ومَوقعِه بينَ الرُّسُلِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ في مقابلةِ ما يدلُّ عليه تكذيبُ قومِه إيّاهُ؛ مِن عنادِه وقِلَّة الاكتراثِ به.

نُكتةُ ذِكْرِ: ﴿مِّن﴾:

ذِكْـرُ بعـضِ خصائصِ نبيِّنا مِـن شـأنِـه أنْ يُسلّيَه، ويُرغِّبَ القومَ في دينِه

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ للتَّنْبيهِ - بقرينةِ أنَّ الخطابَ لنبيِّنا ﷺ - على قوَّة استحضارِ الرَّسولِ لهؤلاءِ الرُّسُلِ وأحوالِهم مع أقوامِهم، وأحوالِ أقوامِهم معهم؛ كأنَّهم جميعًا كانوا في فترةٍ زمانيَّةٍ قريبةٍ مِن بعْثِه وإرسالِه ﷺ إلى قومِه.

فائدةُ ذِكْرِ (كافِ) الخطابِ:

في ذكْـرِ هـذهِ الـكـافِ شديدُ اعتناءٍ واحتفالٍ بنبيِّنا ﷺ

آثر البيانُ الإلهيُّ ذكرَ كافِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ مصرِّحًا بها حضًّا على المبالغةِ في طلبِ التَّأسّي بالرُّسُلِ السّابقينَ، وحصولِ التَّسْليةِ بأحوالِهم وأحوالِ أقوامِهم؛ بإرشادِه ﷺ في لُطْفٍ إلى أنْ ينظرَ في أحوالِهم وأحوالِ أقوامِهم، ثم ينظرَ في حالِه وحالِ قومِه؛ ليتحقَّقَ المقصودُ؛ فيتسلَّى بأنَّ حاله ليس بدعًا من أحوال الرسل قبله.

سِرُّ حَذْفِ الجوابِ:

تـحـقَّـقَ نبيُّنا بكـمـال الـصَّـبْرِ عليهم والرَّحْمةِ بهم

الظّاهرُ أنَّ جوابَ الشّرطِ محذوفٌ، وأنَّ تقديرَه: (فلا تحزنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.

عليهم، واصبرْ على هدايتهم)؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: فهو مِن حركةِ معنى التّسْليةِ في الآيةِ؛ كما أنَّ الجوابَ المحذوفَ كذلكَ؛ فهو دليلٌ على الجوابِ أيضًا على الجُمْلةِ، وقد اكتفَى القرآنُ بذكرِ السَّببِ عن ذِكْرِ المُسبَّبِ، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ دالٌّ على أنَّ صبرَ النّبيِّ ﷺ وعدمَ جزعه ليسَ المقصودَ بالذّات، وإنّما تسويةُ تكذيبِه بتكذيبِ الأنبياء السّابقين؛ لأنّ صبرَه ثابتٌ في الدَّعوة.

وذكَر الآلوسي جوازَ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: هي الجوابَ مِن غير تقديرٍ، ويكونَ المُترتِّبُ على الشَّرْطِ الإعلامَ والإخبارَ؛ كما في قوله تعالى -: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53][1].

دلالةُ (الواو):

اكتَسَبَتِ الجملةُ المعطوفةُ معنَى التَّذْييلِ؛ بما فيها مِنَ العموم

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على ما بعدَ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لبيانِ جزاءِ المُكذِّبينَ على وجهٍ يعُمُّهُم وغيرَهُم، والتّقديرُ: (وإن يكذبوك فإلى اللّه ترجع الأمور)، أي: اصبرْ على هدايتهم فإنَّ الأمورَ والأحوالَ راجعةٌ إليه ليفصلَ بينكم؛ ففي الجملة المعطوفةِ مزيدُ التّسْليةِ، وبيانُ أنَّ أمرَ أولئك المُكذِّبينَ وأمرَ أولئكَ الرُّسُلِ في جملةِ عمومِ الأمورِ التي أُرْجِعت إلى اللّه تعالى؛ إذ لا تَخرج أمورُهم مِن نِطاق عُموم الأمرِ[2].

علّةُ التّعبيرِ بـ(إلى):

لقاءُ اللهِ هوَ الغايةُ التي تُسْعِد الفائزين

عبَّر القرآنُ بحرف الانتهاءِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 257.

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الله هو الَّذي يَفْصِلُ بينَ جميعِ المخلوقاتِ؛ فهو الحَكَمُ بينَ الرُّسُلِ والمكذِّبين من أقوامهم؛ "وفي هذا وعيدٌ للكفّار، ووعدٌ للنّبيِّ ﷺ "[1].

علّةُ التّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ:

مُـرْسِـلُ الـرُّسُـلِ هـو الـذي ترجعُ إليه الأمورُ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ مُظهرًا له؛ لمناسبة الدّلالةِ على الألوهيَّة بالتَّنْبيهِ على البَعْثِ بذِكْرِ الرَّجْعِ إلى الله، وهذا الاسْمُ هو المسيطرُ على الأسماءِ والصِّفاتِ كلِّها: ما نعلمُه منها، وما لا نعلمُه، وهي لا تتناهَى لأنَّها كمالاتُه تعالى فهو أدلُّ على الجلالِ في مقامِ الوعيدِ والتّهديدِ، ولا يخفى أنَّ الرّجوعَ تقديرُه: وإلى مكانِ البَعْثِ الَّذي أمرَ به تعالى ترجعونَ، أو يكونُ في استعمالِ (إلى) مع غيرِ المكان قرينةٌ على استعارة مكنيّة بتشبيهِ غيرِ المكانيِّ بالمكانيِّ؛ للدّلالةِ على إحاطةِ الله بالعباد كما يحيطُ المكانُ بالمُتمكِّنِ فيه، والجملةُ برُمَّتِها كنايةٌ عنِ الحساب والفصلِ بينَ الأنبياء والمكذِّبين لهم يومَ الدّين؛ فلا ينبغي الانقطاعُ عنِ الدَّعوة نتيجةَ التّكذيبِ.

علّةُ التّعبيرِ بالرُّجوعِ:

فـي الـرُّجـوعِ مـنـاسـبـة لإنكارهم البعث

في التّعبيرِ بالرَّجْعِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ تصديقٌ لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ، وتحذيرٌ لمَن يُكذِّبونه؛ فإنَّ من جملةِ ما نَصّوا على تكذيبِه البَعْثَ، وفي (الرُّجوعِ والرَّجْعِ) إشارةٌ إلى هذا البَعْثِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْءُ، أوْ تقديرُ البَدْءِ مكانًا أوْ فعلًا أوْ قولًا؛ فالرُّجوعُ العَوْدُ، والرَّجْعُ الإعادةُ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: 28]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 281]، ولا يخفَى أنَّ مادَّة هذا اللّفظِ تدورُ على رَدٍّ وتَكْرارٍ[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 429.

(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (رجع).

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارَعةِ:

تتجدَّدُ للنّاسِ حقائقُ الأشياءِ في كـلِّ وقـتٍ؛ فمَن يعتبِرْ!

نظَمَ القرآنُ معنَى الرُّجوعِ فعلًا مضارِعًا في قوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ نظرًا إلى ما في الرُّجوعِ مِن تكرارِ ما يتَّصِفُ بمعنَى الفعلِ مِنَ الأشياءِ والأمورِ؛ تأسيسًا على العمومِ الَّذي في الجمع ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ الشّاملِ لكلِّ أحوالِ كلِّ المخلوقاتِ، وفي المُضارَعةِ إشارةٌ إلى إمكانِ مُشاهَدةِ أصلِ هذا الرُّجوعِ في الدُّنْيا بمُشاهَدةِ رحيلِ النّاسِ جميعًا إلى الحياةِ البرزخيَّة بالمَوْت.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي ﴿تُرۡجَعُ﴾:

في الحذفِ تذكيرٌ لطيفٌ بإنكارِ الألوهيَّةِ والبَعْثِ

قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرو وعاصمٌ وأبو جعفر ﴿تُرۡجَعُ﴾ بضمِّ التّاء وفتحِ الجيم مبنيًّا للمفعول، وأمّا الباقون فقرأوا: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بفتح التّاء وكسرِ الجيم مبنيًّا للفاعل[1]، والقرآنُ حذَف في القراءة الأولى فاعلَ الرَّجْع، وأسندَ إليه (الأمور) نائبَ فاعلٍ فقال: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ ظُهورِ الألوهيَّةِ الحَقَّة، وراءَ الدّلالة على كمالِ العلْم بالفاعلِ الَّذي هو اللّهُ؛ فإنَّ مَن يكونُ إليه الرَّجْعُ يكونُ هو فاعلَه؛ ففي ذلك رَدٌّ لطيفٌ على التَّكذيبِ المذكورِ في الآيةِ مِن قبلُ، وهذه القراءةُ مِنَ الرَّجْع، والقراءةُ الثانيةُ ذُكِرَ فيها الفاعل، وبناءً عليه تتحقّقُ الاستعارةُ المَكنيَّة؛ إذ شبَّه الأمورَ بأجسامٍ قابلةٍ للرُّجوع كما ترجعُ الأجسامُ ليتمَّ القضاءُ فيها؛ قال أبو السّعود: "وقُرِئَ: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بفتح التّاء مِنَ الرُّجوعِ، والأوَّلُ أدخلُ في التَّهويلِ"[2]، والقراءتانِ بهذا متنوِّعتانِ؛ ففيهما إبلاغٌ في الوعيدِ والتّهديدِ مِن جهةٍ، وفي تسليةِ الرَّسولِ وأهلِ الإيمان ووعدِهم مِن جهةٍ أخرى.

سرُّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ وجمعه:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ نائبَ فاعلٍ لـ ﴿تُرۡجَعُ﴾ مع ما يُلْحَظُ فيه من

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 209، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 462.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464.

معنَى الأمْرِ؛ إشارةً إلى قيام أمرِه تعالى بأحوالِ المخلوقاتِ وشؤونِها؛ وأنَّها عَلاقَةُ إحاطةٍ وقَهْرٍ وعِلْمٍ شاملٍ وقدرةٍ فاعِلَةٍ تامَّةٍ مُخْتارةٍ؛ فهو المُسيْطِرُ على تلك الأحوالِ والشّؤونِ، ومَن يتّصفونَ بها مِنَ العقلاء، كما يدلُّ (الأمر) على الحكم والقضاء؛ فيكونُ في النصّ إشارةٌ إلى أنَّ ما وقع الاختلافُ فيه بين الرُّسُل والمكذّبين يحكمُ اللّه فيه عندَ الرّجوعِ إليه، فلا تجزعوا أيُّها الأنبياء والدُّعاة واصبروا على الدّعوة والإرشاد.

ما انفردَتْ به السّورةُ مِن معاني القُدرة على الخَلْق يَقْتضي هذا المعنَى

وناسبَ الاختصاصَ بالرّجوع إليه جمعُ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ الدّالُّ على الاستغراق والشّمول؛ إذ ما مِن أمرٍ وحالٍ - مهما تعدّد - إلّا وهو راجعٌ إليه ليحكُمَ فيه، ويُنصفَ المظلومَ منَ الظّالم.

بلاغةُ التّقديمِ:

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على جارّ ومجرور متعلِّقَينِ بالفعلِ: ﴿تُرْجَعُ﴾؛ وكان الظّاهرُ التّأخيرَ؛ بأنْ يُقال: (وتُرجع الأمور إلى اللّه)؛ ففي التّقديم تنبيهٌ على كمالِ ظهورِ ألوهيَّة اللّه في الكونِ؛ وبهذا يكونُ تكذيبُ الرُّسُلِ عمومًا، والرَّسولِ محمّدٍ ﷺ خصوصًا ظاهرَ البُطْلانِ، وفيه معنَى أنَّ مِن شأنِ اللّه تعالى أنْ تُرجع إليه الأمورُ؛ لأنَّه تعالى له جميعُ الأمورِ كلِّها؛ حِسّيِّها ومعنويِّها؛ ففي التَّقديم تعليلٌ في المعنى للحُكْم الذي تُثْبِتُه الجملةُ، وفيه أيضًا معنَى القَصْرِ؛ وهو قصرُ صفةِ رَجْعِ الأمورِ على موصوفٍ هو اللّهُ بحيثُ لا تتجاوزُه إلى غيرِه مطلقًا قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وداعي التَّوْكيدِ الذي يُحقِّقُه القَصْرُ التَّكذيبُ المذكورُ؛ فإنَّ أهلَ الكفرِ والشِّرْكِ المُكذِّبينَ نبيَّنا محمّدًا ﷺ لا يُصدِّقونَ بمضمونِ القَصْرِ القائمِ على إثباتِ معنى المقصورِ للمَقصور عليه، ونفيِه عن غيرِه.

اللهُ هوَ الباقي الذي لا يتغيَّرُ، والذي يختَصُّ بأنْ ترجِعَ إليه كلُّ المتُغيِّراتِ

سِرُّ إبهامِ الجزاءِ:

اقتصَر القرآنُ في هذه الجملةِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على

فِقْهُ مَوْقِعِ الآيةِ يُساعِدُ على توجيهِ كثيرٍ مِن مُكوِّناتِها

ذِكْرِ اختصاصِ المرجِعِ باللهِ تعالى معَ إبهامِ الجزاءِ ثوابًا وعقابًا إبلاغًا في الوَعْدِ والوعيدِ[1]؛ لأنَّ إجمالَ الجزاءِ يجعلُ النَّفْسَ تذهبُ في تصوُّرِه كلَّ مذهبٍ مُمْكِنٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 168.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»